ما يقوم مقام الحج والعمرة عند العجز عنهما

يا سائرين إلى البيت العتيق لقد سرتم جسوما وسرنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على عذر وقد رحلوا ومن أقام على عذر كمن راحا

□ ما يقوم مقام الحج والعمرة عند العجز عنها □

من رحمة الله تبارك وتعالى بعباده أن جعل المتخلف لعذر شريكا للسائر كما قال النبي ﷺ لمّا رجع من غزوة تبوك: «إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم خلّفهم العذر».

يا سائرين إلى البيت العتيق لقد　　سرتم جسوما وسرنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على عذر وقد رحلوا　　ومن أقام على عذر كمن راحا

وربما سبق بعض من سار بقلبه وهمته وعزمه بعض السائرين ببدنه. فليس الشأن فيمن سار ببدنه، إنما الشأن فيمن قعد بدنه لعذر، وسار بقلبه حتى سبق الركب.

يا سائرين إلى دار الأحباب، قفوا للمنقطعين تحملوا معكم رسائل المحصرين.

خذوا نظرة مني　　فلاقوا بها الحمى
أتراكم في النقا والمنحنى　　أهل سلع تذكرونا ذِكْرَنا
انقطعنا ووصلتم فاعلموا　　واشكروا المنعم يا أهل منى
قد خسرنا وربحتم فَصِلوا　　بفضول الربح مَنْ قد غُبِنَا
سار قلبي خلف أحمالكمُ　　غير أن العذرَ عاقَ البدنا
ما قطعتم واديا إلّا وقدْ　　جئته أسعى بأقدام المنى
آه وا شوقي إلى ذاك الحمى　　شوق محروم وقد ذاق العنا
سلموا عني على أربابه　　أخبروهم أنني حلف الضنا
أنا مُذْ غبتمْ على تذكاركم　　أترى عندكمُ ما عندنا
زمنا كنا وكنا جيرة　　فأعاد الله ذاك الزمنا

أخي، من شاهد تلك الديار، وعاين تلك الآثار، ثم انقطع عنها لم يمت

إلا بالأسف والحنين إليها .

ما أذكر عيشنا الذي قد سَلَفا إلا وجف القلب وكم قد وجفا
واها لزماننا الذي كان صفا وا أسفا وهل يرد فائتا وا أسفا

يا أخي ، سفر الدنيا ينقطع بسير الأبدان وسفر آخرة ينقطع بسير القلوب .

قال رجل لبعض العارفين : قد قطعت إليك مسافة . قال : ليس هذا الأمر بقطع المسافات ، فارق نفسك بخطوة ، وقد وصلت إلى مقصودك .

سير القلوب أبلغ من سير الأبدان كم من واصل ببدنه إلى البيت، وقلبه منقطع عن رب البيت ، وكم من قاعد على فراشه في بيته ، وقلبه متصل بالمحل الأعلى .

جسمي معي غير أن الروح عندكم فالجسم في غربة والروح في وطن

وهاك أعمالًا تقوم مقام الحج والعمرة عند العجز عنهما .

• **أولًا : ذكر الله دبر كل صلاة :**

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء الفقراء إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلا والنعيم المقيم يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضل أموال يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون . فقال رسول الله ﷺ : « ألا أحدثكم بما لو أخذتم به لحقتم من سبقكم ، ولم يدرككم أحد بعدكم ، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه إلا من عَمل مثله ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثًا وثلاثين » .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ، ذهب الأغنياء بالأجر يحجون ولا نحج ، ويجاهدون ولا نجاهد ، وبكذا وبكذا . فقال رسول الله ﷺ : « ألا أدلكم على شيء إن أخذتم به جئتم من أفضل ما يجيء به أحد منهم

أن تكبروا الله أربعا وثلاثين ، وتسبحوه ثلاثا وثلاثين وتحمدوه ثلاثا وثلاثين في دبر كل صلاة »[١].

• **ثانيًا : صلاة العشاء والغداة في جماعة :**

عن أبي ذر رضي الله عنه أن أناسا من أصحاب النبي ﷺ قالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم . فقال النبي ﷺ : « أوليس قد جعل الله لكم صلاة العشاء في جماعة تعدل حجة ، وصلاة الغد في جماعة تعدل عمرة »[٢].

قال أبو هريرة لرجل : بكورك إلى المسجد أحبّ إليّ من غزوتنا مع رسول الله ﷺ .

وأداء الواجبات كلها أفضل من التنفل بالحج والعمرة وغيرهما ، فما تقرب العباد إلى ربهم بمثل أداء ما افترضه عليهم ، وكثير من النفوس يثقل عليها التنزه عن كسب الحرام والشبهات ، ويسهل عليها إنفاق ذلك في الحج والصدقة .

قال بعض السلف : ترك دانق مما يكرهه الله أحبّ إليّ من خمسمائة حجة . وكف الجوارح عن المحرمات أفضل من التطوع بالحج وغيره ، وهو أشق على النفوس .

قال الفضيل بن عياض : ما حج ولا رباط ولا جهاد أشد من حبس اللسان ، ولو أصبحت يهمك لسانك ؛ أصبحت في همّ شديد .

وليس الاعتبار بأعمال البر بالجوارح ، وإنما الاعتبار بلين القلوب وتقواها وتطهيرها عن الآثام .

---

(١) رواه أحمد في مسنده، والنسائي .

(٢) رواه مسلم .

• ثالثًا: صلاة الفجر في جماعة والذكر حتى طلوع الشمس وصلاة ركعتين بعدها:

قال رسول الله ﷺ : « من صلى الفجر في جماعة ، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ، ثم صلى ركعتين ؛ كانت له كأجر حجة ، وعمرة تامة ، تامة ، تامة »[١].

• رابعًا : حضور الجماعات والمشي إلى التطوع :

قال رسول الله ﷺ : « من مشى إلى صلاة مكتوبة في الجماعة ، فهي كحجة ، ومن مشى إلى صلاة تطوع ، فهي كعمرة نافلة »[٢].

والمقصود بالمشي إلى صلاة التطوع ، صلاة الضحى كما في رواية أبي داود .

قال المناوي : « من مشى إلى أداء صلاة مكتوبة فالمشية والخصلة كحجة ، أي : كثوابها . ومن مشي إلى صلاة تطوع فهي كثواب عمرة لكن لا يلزم التساوي في المقدار » اهـ .

• خامسًا : الصلاة في مسجد قباء :

قال رسول الله ﷺ : « من تطهر في بيته ، ثم أتى مسجد قباء فيصلي فيه ، كان له عدل عمرة »[٣].

---

(١) رواه الترمذي عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم٦٢٢٢، وتخريج الترغيب ١ /١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة ، وأبو داود ، وأحمد في مسنده ، وابن عدي في الكامل، والبيهقي في سننه، وابن عساكر، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٣٢، قال المناوي : « قال في المطامح : فيه علتان: انقطاع في سنده؛ لأن مكحولا لم يسمع من أبي أمامة ، وفيه رجل مجهول » .

(٣) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والنسائي ، والحاكم في المستدرك عن سهل بن حنيف وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٠١ .

وقال ﷺ : « الصلاة في مسجد قباء كعمرة »(١).

وقال ﷺ : « من أتى مسجد بني عمرو بن عوف – مسجد قباء – لا ينزعه إلا الصلاة ، كان له أجر عمرة » .

•عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص قالت : سمعت أبي يقول : لأن أصلي في مسجد قباء ركعتين ، أحب إليّ من آتي بيت المقدس مرتين ، لو يعلمون ما في قباء ، لضربوا إليه أكباد الإبل »(٢).

وهذه الأخبار يدل على تظاهرها في العامة والخاصة قول عبد الرحمن بن الحكم في شعر له .

فإنْ أهلِكْ فقد أقْرَرْتُ عينا   من المُتَعَمِّـرَات إلى قُبـاء(٣)

وفي هذا المسجد ورجاله نزل قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين** ﴾ ، وقال لهم رسول الله ﷺ : « إن الله قد رضي طهوركم يا أهل قباء »(٤).

•سادسًا : شهود العيدين : الفطر والأضحى :

قال ابن رجب : « قال مخنف بن سليم ؛ وهو معدود من الصحابة : الخروج يوم الفطر يعدل عمرة ، والخروج يوم الأضحى يعدل حجة(٥).

---

(١) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والترمذي ، وابن ماجة ، والحاكم في المستدرك عن أسيد بن حضير، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٧٦٦ .

(٢) رجاله ثقات ، وقال الحافظ ابن حجر في سنده: صحيح ٣ /٦٩ ، وهذا محمول على غير السفر وشد الرحل كما حققه الإمام ابن تيمية .

(٣) أخبار المدينة المنورة. للحافظ ابن شبة النميري ١ /٤٥ .

(٤) حديث إسناده صحيح .

(٥) لطائف المعارف .

رأى بعض الصالحين الحاج في وقت خروجهم فوقف يبكي ويقول : واضعفاه وينشد .

فقلت دعوني واتباعي ركابكم أكن طوع أيديكم كما يفعل العبد

ثم تنفس وقال : هذه حسرة من انقطع عن الوصول إلى البيت ، فكيف تكون حسرة من انقطع عن الوصول إلى رب البيت .

إخواني : إن حبستم العام عن الحج فارجعوا إلى جهاد النفوس ، أو أحصرتم عن أداء النسك فأريقوا على تخلفكم من الدموع ما تيسر ، فإن إراقة الدماء لازمة للمحصر ، ولا تحلقوا رؤوس أديانكم بالذنوب ، فإن الذنوب حالقة للدين ليست حالقة الشعر ، وقوموا لله باستشعار الرجاء والخوف مقام القيام بأرجاء الخيف والمشعر ، ومن كان قد بعد عن حرم الله ، فلا يبعد نفسه بالذنوب عن رحمة الله، فإن رحمة الله قريب ممن تاب إليه واستغفر، ومن عجز عن حج البيت أو البيت منه بعيد، فليقصد رب البيت فإنه ممن دعاه ورجاه أقرب من حبل الوريد .

ويقول ابن رجب أيضا : من فاته في هذا العام القيام بعرفة ؛ فليقم لله بحقه الذي عرفه .

من عجز عن المبيت بمزدلفة فليبيت عزمه على طاعة الله وقد قرّبه وأزلفه .

من لم يمكنه القيام بأرجاء الخيف ؛ فليقم لله بحق الرجاء والخوف .

مَنْ لم يقدر على نحر هديه بمنى ؛ فليذبح هواه هنا ، وقد بلغ المنى.

من لم يصل إلى البيت لأنه منه بعيد ؛ فليقصد رب البيت فإنه أقرب إلى من دعاه ورجاه من حبل الوريد »[١].

يقول ابن الجوزي في الحجيج ومنازلهم : إن لم نصل إلى ديارهم فلنصل انكسارنا بانكسارهم .

---

(١) لطائف المعارف ٢٩٩ - ٣٠٠ .

إن لم نقدر على عرفات فلنستدرك ما قد فات .

إن لم نصل إلى الحجر فَلْيَلن كل قلب حجر .

إن لم نقدر على ليلة جمع ومنى ؛ فلنقم بمأتم الأسف هاهنا .

أين المنيب المجد السابق ، هذا يوم يرحم فيه الصادق .

من لم يُنب في هذا اليوم فمتى ينيب ، ومَنْ لم يجب في هذا الوقت فمتى يجيب ، ومن لم يتعرف بالتوبة فهو غريب .

أسفا لعبد لم يغفر له اليوم ما جنى ، كلّما همّ بخير نقض الطوّد وما بنَى ، حضر مواسم الأفراح فما حصّل خيرا ولا اقتنى ، ودخل بساتين الفلاح فما مدّ كفّا ولا جنى ، ليت شعري من منّا خاب ، ومن مِنّا نال المنى .

فيا إخواني : إن فاتنا نزول منى ، فلننزل دموع الحسرات هاهنا ، وكيف لا نبكي ولا ندري ماذا يراد بنا ، وكيف بالسكون ، وما نعلم ما عنده لنا .

فلذا الموقف أعددنا البكاء ولذا اليوم الدموع تقتنى[1]

أخي ، لئن سار القوم وقعدنا ، وقربوا وبعدنا ، فما يؤمننا أن نكون ممن ﴿ كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ .

لله درُّ ركائب سارت بهم تطـ ـوي القفار الشاسعات على الدجى
رحلوا إلى البيت الحرام وقد شجا قلب المتيم منهم ما قد شجا
نزلوا بباب لا يخيب نزيله وقلوبهم بين المخافة والرجا

يحق لمن رأى الواصلين وهو منقطع أن يقلق ، ولمن شاهد السائرين إلى ديار الأحبة وهو قاعد أن يحزن .

عرّض بذكري عندهم لعلهمْ إن سمعوك سألوك عني
قل ذلك المحبوس عن قصدكم معذب القلب بكل فن

(١) التبصرة ١ /١٥٢ - ١٥٣ .

إخواني ، نفحت في أيام الحج نفحة من نفحات الأنس من رياض القدس على كل قلب أجاب إلى ما دعي .

يا همم العارفين بغير الله لا تقنعي .

يا عزائم الناسكين لجمع أنساك السالكين اجمعي .

لحب مولاك أفردي ، وبين خوفه ورجائه اقرني ، وبذكره تمتعي .

يا أسرار المحبين بكعبة الحب طوفي واركعي .

وبين صفاء الصفا ومروة المروى اسعي وأسرعي .

وفي عرفات الغرفات قفي وتضرعي .

ثم إلى مزدلفة الزلفى فادفعي .

ثم إلى منى نيل المنى فارجعي .

فإذا قرب القرابين فقربي الأرواح ولا تمنعي .

لقد وضح الطريق ، ولكن قل السالك على التحقيق ، وكثر المدعي .

لئن لم أحج البيت أو شط ربعه ... حججت إلى من لا يغيب عن الذكر
فأحرمت من وقتي بخلع نقائصي ... أطوف وأسعى في اللطائف والبر
صفاي صفائي عن صفاتي ومروتي ... مروءة قلبي عن سوى حبه فقر
وفي عرفات الأنس بالله موقفي ... ومزدلفى الزلفى لديه إلى الحشر
وبتُّ المنى مني مبيتي في مناي ... ورمي جماري جمر شوقي في صدري
وإشعار هديي ذبح نفسي بقهرها ... وخلعي بمحو الكائنات عن السر
ومن رام نفرًا بعد نسك فإنني ... مقيم على نسكي حياتي بلا نفر[1]

(١) هذه الأبيات لا تصلح إلا عند العجز عن الحج وإلا فظاهرها يوحي بكلام الصوفية في الحج بالهمة وترك شعائر الحج، ومع أن الإمامين ابن الجوزي وابن رجب قد ساقا هذه الأبيات في فضل الحج وهما جليلان إلا أن الحق أحب إلينا منهما... وأفضل القول قول محمد ﷺ .